بسم الله الرحمن الرحيم

أصداء اللثغة

في

الأدب العربى

بقلم الدكتور

عبد الجواد محمد المحص

المدرس بالكلية

أصداء " اللثغة " فى الأدب العربى

- معروف أن " اللثغة " عاهة أو عيب يصيب اللسان ، فيتحول أثناء النطق باللفظة من حرف فيها إلى حرف آخر قريب منه فى المخرج أو بعيد . وهذا العيب اللسانى يعرض لفئة من الناس منذ خلق الله الدنيا إلى يومنا هذا . والناس متفاوتون فى أقدارها من الشناعة ، ولا يكادون يتفقون على الرضا بها بعد طول العهد ، وألا يحاولوا تغيير ما صنع الله ، وإن كان الطب الحديث فى عصرنا هذا يحاول أن يخفف من حدتها ، وأن يأخذ بها إلى غير سبيلها .

- واللثغة - كما هو مشاهد - تقع فى أربعة حروف من حروف الهجاء ، هى : القاف والسين واللام والراء . ولكل منها ضروب من اللثغ . فاللثغة التى تعرض للقاف تكون (طاء) ، فإذا أراد صاحبها أن يقول - مثلا - : (قمر) قال (طمر) ومن اللثغ من يقلبها كافا ، فيقول : (كمر) . واللثغة التى تعرض للسين تكون (ثاء) ، فإذا أراد صاحبها أن يقول - مثلا - : (عباس) : قال : (عباث) . وأما اللثغة التى تقع فى اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء ، فيقول - مثلا - (جمي) بدلا من (جمل) ، وآخرون يجعلون اللام كافا ، كالذى عرض لعمر أخى هلال ، فإنه كان كما يقول الجاحظ [1] - إذا أراد أن يقول : (ماالعلة فى هذا ؟) قال : (مكعكة فى هذا ؟) . وأما اللثغة التى تقع فى الراء فإن عددها يزيد على عدد لثغة اللام - فى رأى الجاحظ - " أقلها قبحا وأوجدها فى ذوى الشرف وكبار الناس وبلغائهم وعلمائهم " [2] وأصحاب هذه اللثغة ينطقون لفظة (عامر) - مثلا - هكذا : عامى - بسكون الياء - أو عامظ أو عامذ أو عامغ ... كل حسب تحوله بالراء إلى الحرف البديل . وهناك لثغة خامسة فى النطق بالراء لا يمكن تصويرها بالكتابة ، بل سبيلها المحاكاة والنطق ، وهي لثغة فى غاية القبح تسبب لصاحبها

تحرجا أيما تحرج ، وتجعله يشعر بتلك العاهة الشنيعة شعوراً مستبداً يحمله على تجنب الوقوع فى أشراكها ، ولاسيما إذا وجد الناس يداعبونه على ضوئها ، ويتحينون الفرص للتندر به وبها . وقدذكر الجاحظ [٣] من أصحاب هذه اللثغة اثنين هما : واصل بن عطاء ، وسليمان بن يزيد العدوي الشاعر ، وشبه هذه اللثغة التى لا يمكن تصويرها باللثغة التى كانت تعرض فى حرف السين لمحمد بن الحجاج كاتب داود بن محمد ، كاتب أم جعفر ؛ فإن هذه – أيضا – ليست لها صورة فى الخط ترى بالعين ، وإنما يصورها اللسان وتتأدى إلى السمع .

وقد زعم برهان الدين الوطواط [٤] : أن لثغة واصل لم تكن كما ذكر الجاحظ ؛ بل كانت بالظاء أخت الطاء ! وأنا – فى الحقيقة – لا أرتاح لهذا الرأي ؛ بدليل أن الجاحظ لم يعين نوعها ، واكتفى بقوله : (فليس إلى تصويرها سبيل) فكأنها كانت بين حرفين ، أو مزيجا من حروف . ولو كانت حرفا واحدا – كما زعم الوطواط – لعينه الجاحظ وهو أقرب الناس به عهدا ، وأخبرهم به علما .

هذا وقد تجتمع فى الواحد لثغتان فى حرفين ، كنحو لثغة (شوشى) صاحب (عبد الله بن خالد الأموي) فإنه كان يجعل اللام ياء والراء ياء . قال ذات مرة – : (مورياي وبي ريبي) يريد : (مولاي ولي الري) [٥] .

"واللثغة التى فى الراء إذا كانت بالياء فهى أحقرهن وأوضعهن لذى المروءة ، ثم التى على الظاء ، ثم التى على الذال . فأما التى على الغين فهي أيسرهن " [٦]

والذين عرفوا بهذه العاهة فى الزمن القديم كثيرون ، منهم من ورد اسمه فى كلامنا السابق ، ومنهم : محمد بن شبيب المتكلم ، وعلي بن الجنيد بن دُرَيْدى .

- هذه اللثغة التي أوضحنا طبيعتها وأنماطها والحروف التى تظهر فيها ، وبعض من اشتهر بها كانت لها أصداء ملموسة فى أدبنا العربي شعرا ونثرا . وهي أصداء تسير فى خطين متقابلين ؛ فأحيانا نسمع هذه الأصداء فى أدب ذوى اللثغة ...الأمر الذى يؤكد أن علل الجوارح لها مردودها الفني على إنتاج الأديب. وأحيانا نسمع هذه الأصداء على ألسنة الأدباء غير اللثغ ... الأمر الذى يؤكد أن علل الجوارح - ولا سيما لثغة اللسان - تمثل - فى تراثنا الأدبي - موضوعا أدبيا طريفا جديرا بدراسة موسعة . ومنبع الطرافة : أننا جميعا نصادف فى حياتنا من يلثغ ، ولكن لم يخطر على بالنا أن نسجل حديثه وطريقة كلمه ، أو أن انحراف نطقه مما يمكن أن يجسد ويكون موضوعا لتجربة إبداعية . وفى ذلك دلالة على أن الأديب الفنان يقتنص الغائب عنا ويقيده بالكتابة ، وينقل العادي الذى لا يثير الانتباه إلى موضع الاهتمام ، ويجعل منه مادة أدبية ، وينقل العادي الذى لا يثير الانتباه إلى موضع الاهتمام ، ويجعل منه مادة أدبية ممتعة .

- فمن أصداء " اللُّثْغَةِ " فى أدب " اللُّثْغ " : خطبة واصل بن عطاء التى اكتسبت شهرة تاريخية ، وظلت مخطوطة - قرونا من الزمان - إلى أن نشرها شيخ المحققين عبد السلام هارون منذ نحو ربع قرن . فهذه الخطبة تفصح عن براعة صاحبها فى إخفاء لثغته الشنيعة التى عرف بها ، وذاعت بين الناس . وهي لثغة كانت تقع له فى حرف الراء - كما سبق القول - فتحرجه فى ذلك أيما إحراج ، لكنه أخذ يروض لسانه على مجانبة هذا الحرف ، وبات يحمل على نفسه فى هذا الأمر حتى وفق توفيقا بالغا ، وصار لا ينطق بالألفاظ ذوات الراء ، على الرغم من أن هذاالحرف من أكثر الحروف دورانا فى الكلام . ولم نسمع فيما يروى التاريخ من محاولة عنيدة للهرب من هذا العيب ، كتلك المحاولة التى أرادها

" واصل" وقسر نفسه عليها حتى تمكن من اجتثاث الداء من أصله ، وهو التحرز من ذلك الحرف الذى يحمل تلك الشناعة .

– لقد جاءت هذه الخطبة خالية تمامامن حرف الراء الذى تقع فيه اللثغة . والمثير للدهشة أنه قد ارتجلها دون إعداد وتحضير فى حفل جامع احتشد فيه الناس ، وعلية القوم ، وأمهر الخطباء للاحتفاء بـ" عبد الله بن عمر بن عبد العزيز " حينما عين واليا على العراق من قبل بنى أمية . . ولقد كان هذا الموقف الرهيب كفيلا بأن يخرس صوته هربا من ظهور لثغته الشنيعة فى هذا المقام ؛ لكنه جرى مع الخطباء فى الحفل ، وكان من أبرزهم : خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبة ، والفضل بن عيسى . وقد تناوبوا القول – على هذا الترتيب – قبل واصل ، فانتزعوا إعجاب القوم انتزاعا ، لكنهم – فى الواقع – كانوا قد أعدوا خطبهم من قبل وحبروها ونمقوها . أما واصل الذى خطب من بعدهم فقد ارتجل خطبته ارتجالا ، واقتضبها اقتضابا ، وأطال فيها إطالة ، وحرص كل الحرص على أن ينزع منها الراء ، فساق إعجاب الناس والوالى به إعجابهم بالثلاثة قبله ، وأظهر الوالى الصلات ، فأجزل صلات الثلاثة قبله ، ثم ضاعف لواصل الصلة تقديرا لعبقريته الخطابية النادرة .

وقد سجل الشعراء المعاصرون له هذا الحادث تسجيلا صادقا ، فقال " بشار بن برد " (٧) :

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا ∴ وحبروا خطبا ناهيك من خطب

فقام مرتجلا تغلى بداهته ∴ كمرجل القين لما حف باللهب

وجانب الراء لم يشعر بها أحد ∴ قبل التصفح والإغراق فى الطلب

وقال صفوان الأنصاري [٨] :

فسائل بعبد الله في يوم حفله ∴ وذاك مقام لا يشاهده وغد

أقام شبيبا وابن صفوان قبله ∴ بقول خطيب لا يجانبه القصد

أقام ابن عيسى ، ثم قفاه واصل ∴ فأبدع قولا ماله في الورى ند

فما نقصته الراء إذا كان قادرا ∴ على تركها واللفظ مطرد سَرْد

ففضل عبد الله خطبة واصل ∴ وضوعف في قسم الصلات له الشكر

فأقنع كل القوم شكر حبائهم ∴ وقلل ذاك الضعف في عينه الزهد

✪ ✪ ✪

- استهل واصل هذه الخطبة بمقدمة أطنب فيها إطنابا لا نعرفه لأحد من رصفائه ، على هذا النمط :

" الحمد الله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي علا في دنوه ودنا في علوه ، ولا يؤوده حفظ ماخلق ، ولم يخلقه على مثال سبق ؛ بل أنشأه ابتداعا ، وعدله اصطناعا ، فأحسن كل شيء خلقه ، وتمم مشيئته ، وأوضح حكمته ، فدل على ألوهيته ، فسبحانه لا معقب لحكمه ، ولا دافع لقضائه ، ووسع كل شيء فضله ، لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه ، وعظمت آلاؤه ، وعلا عن صفات كل مخلوق ، وتنزه عن شبيه كل مصنوع ، فلا تبلغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول والأفهام . يُعصى فيحلم ، ويُدعى فيسمع ، ويقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ...

وقد مضى - بعد ذلك - يصلي ويسلم على الرسول الكريم - مطيلا أيضا -

ثم انتقل لموضوع الخطبة ، فحث - مستمعيه - على التقوى والعمل الصالح ، ونفرهم من الدنيا ومتاعها الزائل ، وتحدث عن الأمم الغابرة متخذا من فنائها العبرة ، ودعا إلى الانتفاع بالقرآن الكريم وما يحتويه من أحسن القصص وأبلغ المواعظ ، ووشى خطبته بالاقتباس من القرآن الكريم ... ثم ختم الخطبة بالدعاء لنفسه ولمستمعيه على هذا النحو : " نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، وبالآيات والوحي المبين ، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم ، وأدخلنا وإياكم جنات النعيم . أقول ما به أعظكم ، وأستعتب الله لى ولكم " (٩) .

- ليس من هدفنا - فى هذا الحديث - دراسة هذه الخطبة دراسة فنية ؛ إذ سبق لنا ذلك فى مقال نشرناه فى مجلة " الحرس الوطني " (١٠) بل الغاية هنا التدليل على مردود اللثغة فى أدب اللثغ ؛ فأنت تقرأ هذه الخطبة الطويلة المرتجلة دون أن تظفر بحرف الراء فيها ولو مرة واحدة ، وفى ذلك دلالة على أن صاحبها كان يملك القدرة على الاستغناء عن حرف الراء ، حتى لا يشعرمن يستمع إليه بأنه ألثغ ، ولا بأن مخرج هذاالحرف عنده فاحش شنيع . على أن الخطبة تؤكد صدق الجاحظ فيما قاله عنه : " لما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ ، وأن مخرج ذلك منه شنيع ... وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الفخامة والجزالة ، وأن ذلك من أكثر ماتستمال به القلوب ، وتتثنى إليه الأعناق ، وتتزين به المعانى ، وعلم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة ، كنحو ما أعطى الله - تبارك وتعالى - نبيه موسى - عليه السلام - من التوفيق والتسديد .... ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان وإعطاء

الحروف حقها من الفصاحة – رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه ، وإخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ، ويناضله ويساجله ، ويتأتى لستره والراحة من هجنته ، حتى انتظم له ما حاول ، واتسق له ما أمل .... " (١١) .

وواضح أن الجاحظ – في هذا النص – قد علل مجانبة واصل لحرف الراء في كلامه وأدبه بأن دافعه لذلك لثغته التي عرف بها ، وشناعة مخرج الراء عنده .

✪ ✪ ✪

والملفت للنظر : أن لثغة هذا الرجل لم يتوقف تأثيرها وصداها عند حدود أدبه ؛ بل امتد هذا التأثير إلى غيره ، حيث صارت لثغته معلما يذكره كل من يترجم له ، ومنبعا يستمد منه الشعراء أخيلتهم .

فهذا – مثلا – هو أبو محمد الخازن يقول من قصيدة مدح بها الصاحب إسماعيل بن عباد (١٢) :

نعم ، تجنب " لا " يوم العطاء كما ∴ تجنب " ابن عطاء " لفظة " الراء "

وقال الأرّجاني (١٣) :

هجـــــر الراء واصل بن عطاء ∴ في خطاب الورى من الخطبـــــاء

وأنا سـوف أهجـر القـاف والرا ∴ ء مع الضـاد من حـروف الهـجـاء

وقال الزمخشري (١٤) :

فـلا تجـعلنّي مـثل همـزة واصل ∴ فـتلحـقني حـذفـا ، ولا راء واصل

وقال أحد الشعراء :

أجـعلت وصلي الراء لم تنطق به ∴ وقطعـتنى حـتى كـأنك واصل

وقال آخر فى محبوب له ألثغ [١٥] :

أعـد لثـغـة لو أن واصل حـاضـر ∴ ليسـمـعـهـا مـا أسـقط الراء واصل

✪ ✪ ✪

– هذا عن أثر لثغة واصل فى أدبه ، وامتداد هذا الأثر لغيره من الأدباء . أما أثر اللثغة فى أدب غير اللثغ ، فشواهده كثيرة ، ومنه البيت الأخير من الأبيات السالفة ، حيث نرى " المحبوب الألثغ " موضوعا للشاعر فى القصيدة التى منها هذا البيت . والشاعر – كما ترى – يثنى على هذه اللثغة ، ويتلذذ بسماعها من محبوبه ، حتى إنه ليطلب منه تكرارها ، ويقرر أنها لثغة عذبة بسماعها من محبوبه ، حتى إنه ليطلب منه تكرارها ، ويقرر أنها لثغة عذبة لو سمعها واصل بن عطاء ما تحرز من الراء التى كان ينفر منها ويسقطها من أدبه .

ومن الشواهد – أيضا – قول أبى الحسن بن هانىء جاريا على نهج من يتحدث عنه من أصحاب اللثغة – [١٦] :

وشـادن سـألتـه عن اسـمـه ∴ فـقـال لى – باللثغ – : عـبـاث

بات يعـاطينى سـخـامـيـة ∴ وقـال لى : قـد هجع الناث

أمـا ترى حـثن أكـاليلنا ∴ زينـهـا النثـرين والأث ؟

فـعـدت – من لثـغـتـه – ألثـغـا ∴ فـقـلنا : أين الكاث والطاث ؟

واللثغة التى يعنيها الشاعر هي نطق السين ثاء فى (عباس ، والناس ، وحُسْن ، والنسرين ، والآس ، والكأس ، والطاس) وتلحظ : أن الشاعر كان ينطق السين سينا فيقول : (سألته عن اسمه - سخامية) قبل أن يلتقي بهذا الألثغ الذى يتغزل فيه هذا الغزل الماجن . وهي صورة تدفع إلى الضحك طبعا .

ومن هذا الوادي قول الحافظ ابن حجر العسقلاني [١٧] :

يعبث بالهجران لى أهيف ∴ وطرفه بالسحر نفاث
لم يبتسم تيها ؟ وقد قال - إذ ∴ سألته ماالاسم ؟ عباث

وعباث - هنا - أحلى من " عباث " فى أبيات أبى نؤاس ؛ لأنها سيقت على سبيل التورية المحتملة لمعنى قريب هو (عباس) على لسان الألثغ ، ومعنى بعيد هو المبالغة فى العبث . والقرينة الدالة على أن هذا هو المقصود قول الشاعر فى صدر البيت الأول : " يعبث " .

- ويعد هذا الشاهد والذى سبقه من فن الغزل بالغلمان الحسان الذى اشتهر به الشاعر العباسي الماجن " أبو نؤاس " ، وجماعة من معاصريه ، ثم أكثر منه شعراء العصر المملوكي ، ولا سيما الشهاب الحجازي الذى جمع ما قاله منه فى رسالة بعنوان " جنة الولدان فى الحسان من الغلمان " ، ومنها قوله فى مليح يبدل السين ثاء [١٨] :

وألثغ قد بث إذ زارنى ∴ شكواه لى فى عدم اللُّبث
وقال - إذ بالغت فى رشفه - ∴ أكفف فكم ذا أشتكى بثى

وقوله فى مليح مثله - واسمه سالم - [١٩] :

ثلّم القلب بالجفاء مليح ∴ ألثغ قلبه بحبى عالِمْ
يبدل السين حين ينطق ثاء ∴ قلت : ما الإسم سيدى ؟ قال : " ثالمْ "

وقوله فى مليح يبدل الراء عينا [٢٠] :

وبروحى من يبـــدل الراء عـــينا ∴ جـاء بِدْعـا من عـدّه فـيـه عـيـبـا

قلت : هل فى مـحـبـتى لك ريب ∴ قـال : أقـصـر فلست أعلم عـيـبـا

والأصل : " فلست أعلم ريبا " ، ولولا هذا لما ساغ للشاعر تكرير القافية بلفظها قبل مرور سبعة أبيات .

– على أن هذا الشاعر له غزل – أيضا – فى اللثغاوات من النساء ، له شواهد عديدة فى رسالة أخرى بعنوان " الكنس الجواري فى الحسان من الجواري " ، ومنها قوله فى مليحة تبدل الكاف همزة [٢١] :

بروحي هيفـا تبـدل الكاف همـزة ∴ وقد حسبتنى – لاحتـمـالى – أبكما

ومذ صحت وجدا بعد فـرط تألمى ∴ رثت لى ، وقالت – بعد صمت – : تألما

– وفى هذه النماذج دلالة على أن " اللثغة " التى تبدو فى عيون الناس من العيوب اللسانية ، ويحاول الطب الحديث فى وقتنا هذا التخفيف من حدتها ، والأخذ بها إلى غير سبيلها – كانت فى العصور السالفة ميزة خلقية – بكسر الخاء – تلفت أنظار الشعراء الغزلين ، فتسر بها نفوسهم ، وتستريح إليها آذانهم ، ويجعلونها مجالا من مجالات الغزل فى أشعارهم .

صحيح أن الغزل بالغلمان اللثغ – والغلمان بصفة عامة – أصبح فى عصرنا أمرا مستهجنا ، وفنا مرذولا ، يمجه الذوق ، وتنفر منه النفس ، ويرفضه الحسّ الدينى ؛ لكن الشعراء السابقين كانوا يرون فيه ضربا من الإبداع ، ولونا من ألوان التجديد فى الغزل . ويبدو أن الاهتمام بالصنعة والتجديد فيها هو الذى جعل

الحافظ بن حجر والشهاب الحجازي وغيرهما من شعراء العصر المملوكي ينصرفون عن الطريق السوي فى الغزل ، ويلهثون وراء هذا اللون الذى يدل ظاهره على أنه من باب " الغزل الماجن بالمذكر " فى أغلب شواهده .

لكن أحد الباحثين – وهو الدكتور عائض الردادي – قد علق عليه تعليقا آخر حين ذكرأبياتا لشاعر من شعراء الحجاز فى القرن الحادى عشر الهجري – هو الشاعر محمد بن عبد الرحمن البوني – أنشدها فى مليح ألثغ يبدل الراء غينا هكذا :

ظبي جميل حوى المعانى ∴ وفى بديع الجمال أبدغ

عذب اللمى والحديث ، لكن ∴ بلفظة " الراء " فهو يلثغ

طلبت من خمر فيه كأسا ∴ فقال : " والله أنت تسكغ "

فقلت : من خمر فيك سكرى ∴ قال : " نعم والجواب يسكغ "

قال الدكتور الردادي [٢٢] :

" هذا الشعر خارج فى إطاره العام عن الجدية ، ويراد به المفاكهة والظرف ، وما يثير الضحك فى النفس ، وينقلها من صخب الحياة وعبوسها وجديتها إلى اللحظات المرحة التى تنسى فيها الهموم ، وتخلد لراحة فكرية ... وهذا اللون من الشعر لا يتجاوز النكتة التى قصد بها الإضحاك ، مهما كان قالبه الشعري من مدح أو ذم أو غزل أو غير ذلك ... ويدخل فيه : الظرف من العيوب الخلقية كاللثغة ، والظرف من صفة لبعض الناس دون التصريح باسم المقصود ، والتندر من حال اجتماعية أو من مهنة معيشية ، والمفاكهة بأسماء الأشخاص مفاكهة لا تعنى شخصا بعينه بقدر ما تعنى إثارة الضحك والترفيه عن النفوس" أ . هـ .

- وأيا كان الدافع أو التفسير لهذا الشعر ، فإنه قد كثر عند الشعراء فى العصر المملوكي ، فكانت منه النماذج المتقدمة ، ونماذج أخرى عديدة أرانى مدفوعا للاستزادة منها ، لتوضيح أن " اللثغة " كانت - بحق - ذات أصداء واسعة جدا فى الأدب العربي ، ولا سيما فى ذلك العصر المشار إليه آنفا .

فهذا هو الشاعر ابراهيم بن علي الملقب بـ " عين بصل " يتغزل أو يتندر - هو الآخر - بألثغ - هكذا [٢٣] :

يقول - وقد داومت تقبيل ثغره ∴ بلثغته - : حسبى أخذت منا فشى

ثكرت بحثو الخندريث ، وكاثنا ∴ تحث ، وثكرى قد أزال وثاوثى

وقال الشاعر المعروف بـ (الخبز أرزى) عن ألثغ ينطق الراء غينا [٢٤] :

فى فمه دریاق لدغ إذا ∴ أحرق قلبى شدة اللدغ

إن قلت - فى ضمى له : أين هو تفديك روحى ؟ قال : لا أدغى .

هذا ولم يكن تصوير " الألثغ " قاصرا على الشعر - فى هذا العصر - بل رأينا ذلك فى مجال النثر أيضا ، ولاسيما عند " أبى الحسين بن سودون اليشبُغاوي " الشاعر الكاتب الفكه الذى ولد ومات بالقاهرة عام ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م ، وأقام مدة فى دمشق تعاطى فيها (خيال الظل) الذى تعاطاه شمس الدين محمد ابن دانيال الموصلي . وله مؤلفات عديدة من أبرزها : " قرة الناظر ونزهة الخاطر " و" نزهة النفوس ومضحك العبوس " .

هذا الأديب ضمن كتابه " نزهة النفوس " مقامات يجارى فيها كتاب المقامات ، وإن كانت لا تصل إلى ما وصلوا إليه من غريب اللغة ، والصنعة الفنية المعقدة . كما ضمنه حكايات وأحاديث مستمدة مما شاهده ، ومما حصل حوله ، ثم

مضى بها – فى عالم الخيال – فأضاف وغيرّ وحور . وكان من أحاديثه حديثا ذا صلة بموضوعنا ؛ إذ يتحدث فيه عمن أسماه (الأحدب البغدادي) ، وهو رجل يشبه أبطال المقامات عند بديع الزمان الهمذاني ، والحريري ، والسيوطي . ولكنه يتميز بأنه بطل ألثغ يقلب الراء غينا ... هو يبدأ هكذا : – (٢٥)

" قال منزهة بن شالويه : حضرت ليلة عند بعض الإخوان ، وكان عنده جماعة من الظرفاء يتناشدون الأشعار ، يقطعون الليل بوصل الأسمار ، فبينما هم كذلك ؛ إذ طلع عليهم رجل قدابيضت لحيته ، وظهرت حدبته فوقف بينهم وقال : أبغك الليالي يا نوغ الصُّباح ، والأقماغ الصُّباح ، .. إنى غجل شاعغ .. ناظم ناثغُ .. أنظم الأشعاغ الفائضة ، والألفاظ الفائقة .... " .

– والأصل – طبعا – " أبرّك الليالي يا نور الصُّباح ، والأقمار الصُّباح .. إنى رجل شاعر .. ناظم ناثر .. أنظم الأشعار الفائقة ، والألفاظ الرائقة " .

لكنه قلب الراء غينا بسبب لثغته .. وعلى هذا النحو يستمر هذا الأحدب الألثغ فى حديثه الذى تفتقت عنه مخيلة ابن سودون ، فيمدح القوم ويذمهم ، ويكلمهم ويمازحهم ، وينظم الشعر ، ويدبج الرسائل .. إلى أن يعلن الكاتب – فى النهاية – أنه هو هذا الألثغ ، من غير أن يحصل من القوم على شيىء ، كما يفعل أبطال المقامات من المكدين .

– ولاشك أن الكاتب قد قدم لنا – من خلال هذا الحديث المتخيل – أنموذجا طريفا يدفع إلى الضحك من الظرفاء اللثغ فى عصره . ويأبى الكاتب إلا أن يكون هذا الأنموذج قادرا على إبداع الشعر ، وتدبيج الرسائل النثرية ، على الرغم من إحالته الراء غينا فى كلامه كله . وهذا لون من الأدب يدفع للضيق فى بداية

قراءته ؛ لأن القارىء يجب أن يتنبه إلى كل حرف غين يأتى فى النص ، لأنه فى الغالب منقلب عن حرف الراء . ولكن هذا الضيق سرعان ما ينقلب ضحكا واستحسانا حينما يكتشف القارىء أن هذا الألثغ هو مبدع النص نفسه ، وبفاجأ بأنه أمام ضرب من اللهو الذى يتعمقه الهزل الوارد على لسان هذا الألثغ فى شعره ونثره . ومن هنا يؤدى عنصر المفاجأة – فى الحكاية – دوره المقصود ، وهو إضحاك القارىء .

✪ ✪ ✪

– هذا ، وما تزال أصداء اللثغة تسمع فى الأدب العربي حتى اليوم ، حيث نسمع هذه الأصداء فى قصائد بعض الشعراء المعاصرين ، ولا سيما أولئك الذين يصورون الطفولة المبكرة لفلذات الأكباد ، فيعمدون إلى أن تكون الصورة مطابقة تماما لحال الطفل فى هذه المرحلة ، وناهجة نهجه فى لثغة الطفولة البريئة ، التى تتحول فيها السين ثاء ، والراء لاما ، والجيم والزاي ذالا ، والقاف همزة ... وغير ذلك من أشباه هذا .

هذا هو المرحوم العقاد – مثلا – ينظم قصيدة فى طفل صغير تعبت معدته ، فوصف له الطبيب مقدارا قليلا جدا من " البيرة " يشربه بين حين وآخر ، فألف الطفل " البيرة " ، واستطابها – على الرغم من مرارتها المعهودة – وصار يهش لها ، ويؤثرها على الحلوى والشيكولاتة والفاكهة . وفى القصيدة تمثيل له على هذه الحالة ، وصياغة لها بلثغته البريئة ، على هذا النمط : (٢٦)

البـيـلا . البـيـلا. البـيـلا ∴ مـاأحلى " سـرب البـيـلا !

هاتوا البـيـلا ، واسـقـونى ∴ هاتوا البـيـلا .. داوونى

البـيـلا . البـيـلا. البـيـلا ∴ مـاأحلى " البنت البـيـلا !

مـالى ومـا للشكولاتا ∴ تمشى لى تا تا تا تا

بطل مـثلى هيـهـاتا ∴ بالحلوى ينسى البـيـلا

.. ويستمر على هذا النحو إلى أن يقول :

لقبى فى صـحـبى " هِمًا " ∴ ظلمـونى فى اسـمى ظلمـا

إن نادوا البـيـلا يومـا ∴ أغلط فى اسـمى والبـيـلا

يحـيـا " همـا " والبـيـلا ∴ البـيـلا . البـيـلا . البـيـلا

✪ ✪ ✪

وبعد : فإننا نخلص – من هذا العرض – إلى عدة نتائج مهمة :

أولا : أن " اللثغة " من العيوب اللسانية ذات الأنماط المختلفة ، والضروب المتنوعة، على النحو الذى فصلناه .

ثانيا : أن لثغة واصل بن عطاء – زعيم المعتزلة – كانت جد قبيحة .. فدفعه ذلك إلى التحرز من حرف الراء الذى يحمل ذلك القبح عنده فى خطبته الطويلة المرتجلة الشهيرة ، وهكذا كان شأنه فى بقية أدبه ومناظراته وأحاديثه .

ثالثا : أن لثغة واصل كانت أمرا متعاطا نطقت به آثار بعض الشعراء المعاصرين له ، والذين جاءوا من بعدهم كذلك .

رابعاً : أن اللثغة كانت ميدانا لنفر من الشعراء المعجبين بأرباب هذه اللثغة ، فأبعدوا لنا صورا طريفة عن اللثغ أغلبها يدخل فى باب الغزل الماجن ، وبعضها يجعل الألثغ شخصية محورية فى حكاية تشبه فن المقامات . وبعضها يجسد اللثغة العذبة التى تبدو على لسان الطفل فى طفولته المبكرة .

الهوامش والمراجع

١ – ينظر : البيان والتبيين للجاحظ – ١ / ٣٤ ، ٣٥ – ط الدجوي بمصر وتحقيق هارون .

٢ – السابق : ٣٧ .

٣ – ينظر : السابق – ٣٦ .

٤ – غرر الخصائص : ١١٤ .

٥ – ينظر : البيان والتبيين ٣٦ .

٦ – السابق والصفحة .

٧ – السابق ص : ٢٤ .

٨ – السابق ص : ٣٢ .

٩ – النص الكامل للخطبة في (نوادر المخطوطات) لهارون ص ١٣٤ وما بعدها ط ٢ مصطفى الحلبي .

١٠ – عدد ربيع الآخر ١٤١٥ هـ – ص ١١٢ ، ١١٣ .

١١ – البيان والتبيين : ١ / ١٤ ، ١٥ .

١٢ – وفيات الأعيان لابن خلكان : ترجمة واصل .

١٣ – رواهما ابن شاكر الكتبي في " عيون التواريخ " .

١٤ – المضنون به على غير أهله : ص ١٢١ ط ١٩١٥م .

١٥ – غرر الخصائص : ١١٤ .

١٦ – ديوانه : ص ٣١ .

١٧ – ديوانه : ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ط دار الصحابة للتراث بطنطا ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م – بتحقيق د/ صبحى رشاد عبد الكريم .

١٨ – جنة الولدان فى الحسان من الغلمان (ضمن ثلاث رسائل) ط السعادة بمصر ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م – ص ٣٦ .

١٩ – السابقوالصفحة .

٢٠ – السابق والصفحة .

٢١ – الكنس الجواري فى الحسان من الجواري – منشورة مع الرسالة السابقة : ص ٤٩ .

٢٢ – الشعر لحجازي فى القرن الحادي عشر : جـ ١ ص ٣٣ ومابعدها – بتصرف . مطابع الشريف بالرياض – الطبعة الثانية ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

٢٣ – عيون التواريخ : ص٨٣ .

٢٤ – وفيات الأعيان : ترجمة الخبز أرزى .

٢٥ – نزهة النفوس ومضحك العبوس : ص ٤٧ط سنة ١٢٨٠هـ .

٢٦ – ديوان العقاد . مجلدا ص ٥٣٦ وما بعدها – منشورات المكتبة العصرية فى بيروت .